خطبة صلاة الجمعة 16/3/2012 للشيخ الطبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، المالكي، دمشق

www.dr-shaal.com

سلسلة قرأت في كتاب

(التَّعاضد والتَّساعد)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبي اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّد وعلى أله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى وأحثكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

يقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة:2].

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل:5-10].

وقال الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:8-9].

أيُّها الإخوة:

هذه هي الخطبة الثَّامنة والعشرون في سلسلة: "قرأت في كتاب"، أختار لكم فيها فوائد منثورة، في كتب قرأتها أو بعضها؛ ليفيد المرء علماً وعملاً.

عنوان خطبة اليوم:

(التَّعاضد والتَّساعد)

بمناسبة دخول شهر ربيع الأنور؛ شهر ولادة سيِّدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، أحببتُ أن أقرأ عليكم طائفةً من أحاديث النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم، أَصدقِ النَّاس لساناً، وأحسنِ الخَلْقِ مقالاً.

وقد قرأتُ في الأسبوع الأوَّل من شهر ربيع أحاديث من كتاب "التَّرغيب والتَّرهيب" للحافظ المنذري، وقرأتُ بعدها من كتاب "كنز العمَّال" للعلَّامة الهندي، ثمَّ من كتاب "تاريخ مدينة دمشق" للحافظ ابن عساكر، ثمَّ من كتاب "اصطناع المعروف" للحافظ ابن أبي الدُّنيا، وقرأت عليكم الخطبة الماضي من كتاب جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي. وأقرأ عليكم اليوم من كتاب "جامع الأصول" لابن أثير الجزري.

وابن الأثير: هو المبارك بن محمَّد الشَّيباني الجزري، أبو السَّعادات، مجد الدِّين: المحدِّث اللُّغوي الأصولي، وُلد ونشأ في جزيرة ابن عمر بتركيا، وانتقل إلى الموصل، وأصيب بمرض أبطل حركة يديه ورجليه، ولازمه إلى أن توفِّي سنة ست وستمائة للهجرة، قيل: إنَّ تصانيفه كلَّها ألفها في زمن مرضه، إملاءً على طلبته، وهم يعينونه بالنَّسخ والمراجعة، من كتبه: "النِّهاية في غريب الحديث، و"جامع الأصول في أحاديث الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم".

وله أخٌ مؤرِّخ اسمه علي صاحب "الكامل في التَّاريخ" و"أسد الغابة في معرفة الصَّحابة".

وأخ لغويٌّ أديبٌ هو نصر الله المعروف بابن الأثير الكاتب صاحب "المثل السَّائر في آداب الكاتب والشَّاعر".

وكتاب "جامع الأصول في أحاديث الرَّسول" لمجد الدِّين ابن الأثير الجزري جمع فيه مؤلِّفه الأحاديث النَّبوية الموزَعة في الأصول السِّتة المعتمَدة عند الفقهاء والمحدثين: (موطأ مالك، وصحيحي البخاري ومسلم، وسنن أبي داود والنَّسائي، وجامع التِّرمذي)، التي

حوت معظم ما صحَّ عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، جمَعَها في كتابه هذا بعد أن رتَّبها وهذَّبها وذلَّل صعابها وقرَّب نفعها، فجاء الكتاب مع فهارسه في خمس عشرة مجلدةً.

وأقرأ عليكم اليوم من كتاب "جامع الأصول" تسعة أحاديث عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أورَدها ابن الأثير في التَّعاضد والتَّساعد بين المسلمين، قال:

أخرج البخاري ومسلم وأبو داود والتِّرمذي والنَّسائي عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أَنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((**حقُّ المسلم على المسلم سِتٌّ، قيل: ما هنَّ يا رسولَ الله؟ قال: إذا لقيتَه فسلِّمْ عليه، وإذا دَعاكَ فأَجِبْهُ، وإذَا استنصحَكَ فانْصَحْ له، وإذا عَطَسَ فَحمِدَ الله فشَمِّتْه، وإذا مرضَ فعُدْه، وإذَا ماتَ فاتْبَعْهُ**)). قال ابن حجر في قوله (حق المسلم على المسلم) معناه واجب وجوباً كفائياً .

وفي رواية النَّسائي قال: ((**للمؤمن على المؤمن سِتُّ خِصَال: يعُودُه إذا مَرِضَ، ويَشهدُهُ إذا ماتَ، ويُجيبُه إذا دعاه، ويسلِّمُ عليه إذا لَقِيَهُ، ويشمِّتُه إذا عَطَسَ، وينصَحُ له إذا غابَ أَو شَهِدَ**)).

وأخرج البخاري ومسلم والتِّرمذي والنَّسائي عن البراء بن عازب –رضي الله عنه–، قال معاوية بن سويد بن مُقَرِّن: دخلتُ على البراء بنِ عازِب –رضي الله عنه– فسمعتُه يقول: ((**أمرنا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم بِسَبْع: بعيادةِ المريض، واتِّباعِ الجنازة، وتشميتِ العاطس، وإبْرَارِ القسم –أو المُقْسِم– ونصرِ المظلوم، وإجابةِ الدَّاعي، وَإفشاءِ السَّلام**)).

وأخرج البخاري وأبو داود عن أبي موسى الأشعري –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((**أطْعِمُوا الجائع، وعُودُوا المريض، وَفُكُّوا العَانِيَ**)).

وأخرج التِّرمذي عن أبي ذر الغفاري –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((**لا يَحْقِرَنَّ أحدُكم شيئاً من المعروف، وإن لم يجد فلْيَلْقَ أَخَاهُ بوجه طليق، وَإذا اشتَرَيتَ لحماً أو طبخْتَ قِدْراً فَأكثِرْ مَرَقَتَه، واغْرِفْ لجارك منه**)).

وأخرج مسلم وأبو داود والتِّرمذي عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((**وَالذي نَفسي بِيدِهِ، لا تَدخلونَ الجنةَ حتى تُؤمِنُوا، ولا تُؤمِنوا حتى تَحابُّوا، أَوَلا أدُلُّكم على شيء إذا فعلتُمُوهُ تحاببتم؟ أَفْشُوا السَّلامَ بينَكم**)).

وأخرج الشَّيخان عن النُّعمان بن بشير –رضي الله عنهما– قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((**مَثَلُ المؤمنين في تَوَادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم مثلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضو تَدَاعَى له سائرُ الجسد بالسَّهَرِ والحُمّى**)).

ولمسلم: ((المسلمون كرجل واحد، إنْ اشتكى عينُهُ اشتكى كُلُّه، وإنْ اشتكى رأسُهُ اشتكى كُلُّه)).

وأخرج أبو داود عن عبد الله بن عمَر –رضي الله عنهما– أَنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((المسلمُ أخو المسلم، لا يَظلمُهُ، ولا يُسْلِمُهُ، ومَن كانَ في حاجَةِ أخيهِ كان اللهُ في حاجَتِهِ، وَمَنْ فرَّجَ عن مُسلِم كُرْبَة فرَّجَ اللهُ عنه بِهَا كُرْبَة من كُرَبِ يومِ القيامةِ، وَمَن سَترَ مُسلِماً سَترَهُ اللهُ يوم القيامةِ)).

وزاد رَزِين: ((ومَن مَشى مع مظلومٍ حتَّى يُثْبِتَ له حَقَّهُ ثبَّت اللهُ قدميْهِ على الصِّراطِ يومَ تَزِلُّ الأقدام)).

وأخرج مسلم وأبو داود والتِّرمذي عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((مَن نفَّسَ عن مؤمنٍ كُرْبةً من كُرَب الدُّنيا نفَّسَ اللهُ عنه كُربةً من كُرَب يوم القيامة، ومن يَسَّرَ على مُعْسِر يَسَّرَ اللهُ عليه في الدُّنيا والآخِرَةِ، وَمَن سَترَ مُسلِماً سَترَهُ اللهُ في الدُّنيا والآخِرَةِ، واللهُ في عَونِ العبدِ ما كانَ العبدُ في عَونِ أَخيهِ، وَمَن سلكَ طريقاً يَلْتَمِسُ فيه عِلْماً سَهَّلَ اللهُ لهُ بِهِ طريقاً إِلى الجنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قوم في بيت من بيوتِ اللهِ يتْلُونَ كتابَ اللهِ تعالى ويتَدَارَسُونَهُ بينهم إلا نَزَلَتْ عليهم السَّكينةُ، وَغَشيَتهم الرَّحمةُ، وحَفَّتهمُ الملائكةُ، وذَكَرهُمُ اللهُ فيمن عِندَهُ، ومَن بطَّأَ به عَملُهُ لم يُسْرِعْ بِهِ نَسبُهُ)).

وعن أبي هريرة –رضي الله عنه– أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((المؤمنُ مِرْآةُ المؤمنِ، والمؤمنُ أخو المؤمنِ؛ يَكُفُّ عليه ضَيْعَتَهُ، ويَحُوطُه من ورائه)).

أيُّها الإخوة:

لما شرح العلماء هذه الأحاديث قالوا في قوله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((من نفَّس عن مؤمنٍ كربةً من كُرَب الدُّنيا نفَّس الله عنه كُربة من كُرَب يوم القيامة)): هذا يرجعُ إلى أنَّ الجزاءَ من جنس العمل، وقد تكاثرت النُّصوصُ بهذا المعنى، كقوله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنَّما يرحم الله من عِباده الرُّحماء))، وقوله: ((إنَّ الله يعذِّب الَّذين يُعذِّبونَ النَّاس في الدُّنيا)).

والكُربة: هي الشِّدَّةُ العظيمة التي تُوقِعُ صاحبَها في الكَرب، وتنفيسُها أن يُخفِّفَ عنه منها، مأخوذٌ مِنْ تنفيس الخناق، كأنَّه يُرخي له الخناق حتَّى يأخذ نفساً، والتَّفريجُ أعظمُ منْ ذلك، وهو أنْ يُزيلَ عنه الكُربةَ، فتنفرج عنه كربتُه، ويزول همُّه وغمُّه، فجزاءُ التَّنفيسِ التَّنفيسُ، وجزاءُ التَّفريجِ التَّفريجُ.

وخرَّج التِّرمذي من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- مرفوعاً: ((**أيُّما مُؤْمِنٍ أطعمَ مؤمناً على جُوعٍ أطعمه الله يوم القيامة من ثمار الجنَّة، وأيُّما مؤمن سقى مؤمناً على ظمأ سقاه الله يومَ القيامة من الرَّحيق المختوم، وأيُّما مؤمنٍ كسا مؤمناً على عُري كساه الله من خضر الجنَّة**)).

وقوله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((**والله في عونِ العبد ما كان العبدُ في عون أخيه**)) وفي حديث ابن عمر -رضي الله عنهما-: ((**ومن كان في حاجةِ أخيه كان الله في حاجته**)). يدلاَّن على فضل قضاءِ الحوائجِ والسَّعي فيها. ففي الحديث: ((**أفضلُ الأعمال إدخالُ السُّرور على المؤمن: كَسَوتَ عورتَه، أو أشبعتَ جَوْعَتُه، أو قضيتَ له حاجة**)).

وبعث الحسنُ البصريُّ -رحمه الله- قوماً من أصحابه في قضاء حاجة لرجل، وقال لهم: مرُّوا بثابت البناني، فخذوه معكم، فأتوا ثابتاً، فقال: أنا معتكف، فرجعوا إلى الحسن فأخبروه، فقال: قولوا له: يا أعمش، أَمَا تعلم أنَّ مشيك في حاجةِ أخيك المسلم خيرٌ لك مِنْ حَجَّةٍ بعد حَجَّةٍ؟ فرجعوا إلى ثابتٍ، فترك اعتكافه، وذهب معهم.

وخرَّج الإمام أحمد -رحمه الله- من حديث ابنةٍ لخبَّاب بن الأرتّ -رضي الله عنه- قالت: خرج خبَّاب في سريَّةٍ، فكان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يتعاهدُنا حتى يحلُب عنْزةً لنا في جَفْنَةٍ لنا، فتمتلئ حتّى تفيضَ، فلمَّا قدم خبَّابٌ حلبَها، فعادَ حِلابها إلى ما كان.

وكان أبو بكر الصِّدِّيق -رضي الله عنه- يحلبُ للحيِّ أغنامهم، فلمَّا استخلف، قالت جاريةٌ منهم: الآن لا يحلُبُها، فقال أبو بكر: بلى، وإني لأرجو أن لا يغيِّرني ما دخلتُ فيه عن شيءٍ كنتُ أفعلُه.

وكان عمر بن الخطَّاب -رضي الله عنه- يتعاهد الأرامل فيستقي لهنَّ الماءَ باللَّيل، ورآه طلحةُ -رضي الله عنه- باللَّيل يدخلُ بيتَ امرأةٍ، فدخلَ إليها طلحةُ نهاراً، فإذا هي عجوزٌ عمياءُ مقعدةٌ، فسألها: ما يصنعُ هذا الرَّجلُ عندك؟ قالت: هذا له منذ كذا وكذا يتعاهدني؛ يأتيني بما يُصلِحُني، ويُخرِج عنِّي الأذى، فقال طلحة: ثكلتك أمُّكَ طلحةُ، عثراتِ عمر تتَّبع؟!

وكان أبو وائل يطوفُ على نساء الحيِّ وعجائزهم كلَّ يوم، فيشتري لهنَّ حوائجهنّ وما يُصلِحُهُنَّ.

وقال مجاهد: صحِبتُ ابنَ عمر في السَّفر لأخدمه، فكان يخدُمُني.

وكان كثيرٌ من الصَّالِحين يشترطُ على أصحابه في السَّفر أنْ يخدُمَهم.

وصحب رجلٌ قوماً في الجهاد، فاشترط عليهم أنْ يخدُمَهم، فكان إذا أرادَ أحدٌ منهم أنْ يغسل رأسه أو ثوبه، قال: هذا من شرطي، فيفعله، فمات فجرَّدوهُ للغسل، فرأَوا على يده مكتوباً: من أهل الجنَّة، فنظروا، فإذا هي كتابةٌ بين الجلد واللَّحم.

وفي الصَّحيحين عن أنسٍ –رضي الله عنه– قال: كنَّا مع النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في السَّفر، فمنَّا الصَّائم، ومنَّا المفطرُ، قال: فنَزلنا منْزلاً في يومٍ حارٍّ، أكثرنا ظلَّاً صاحبُ الكساءِ، ومنَّا من يتَّقي الشَّمسَ بيده، قال: فسقط الصُّوَّام، وقام المفطرون، وضربُوا الأبنية، وسَقوا الرِّكابَ، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((**ذهب المفطِرونَ اليومَ بالأجرِ**)).

رُوي: أنَّ عبد الله بن عبَّاس أتى الحسن والحسين –رضي الله عنهم– فقال: إنَّ أخي وأخاكما –يقصد عبيد الله بن عبَّاس–قد أسرع في ماله إسراعاً قد خِفت على نفاده، وله صبيةٌ قد خِفت أن يدعهم عالةً، وقد عاتبته في ذلك مراراً، ولا أُراه يُقلِع ولا يَنزِع، وأرجو أن يكون لكما مُطيعاً، وإن قولكما عنده مقبولٌ، فلو عاتبتماه؟

فقالا: نفعل إن شاء الله، فصارا إليه، فلمَّا دخلا وجداه يُطعم النَّاس، وإذا جُزرٌ تُنحَر. فقال أحدهما لصاحبه: هذا بعض ما شكاه عبد الله. ثمَّ صارا إليه، فاستقبلهما وأسهل لهما عن فراشه، ولقيهما بالإجلال والإعظام. وقالا: أتيناك في حاجةٍ. فقال: الحوائج بعد الغداء، فلما طعِما وفرغا سألهما عن حاجتهما؟ فقالا: إنَّ أخانا وأخاك عبد الله أتانا فسألنا معاتبَتك على إسرافك في مالك، وقد رأينا بعضَ ما شكا، ولك بنون، ولسنا نأمن عليهم الضَّيعة بعدك. فقال: ما لقولكما عندي مردٌّ، ولا لي عما تأمراني به مدفعٌ، لكنِّي أخبركما بقصتي، وأردُّ الأمر إليكما، فما أمرتماني به أتيته، وما نهيتماني عنه وقفت عنده. فقالا: هات.

فقال: إنَّ الله تبارك وتعالى عودني عادةً جميلةً، فعودتها عباده، ولست آمنُ إن قطعت عادتي عن عباده أن يقطع عادته عني.

فقالا: لا نأمرك في هذا بشيءٍ. وقاما فانصرفا حامدَين لأمره.

أيُّها الإخوة:

هـذا شـيء ممَّا قـرأتُ في التَّعاضـد والتَّسـاعد من كتـاب "جـامع الأصـول" لابن الأثـير الجزري، ولئن كان النَّاس في الأوقات عامَّة محتاجين إلى التَّعاضد والتَّساعد فإنَّهم في أوقات الأزمـات أشـدُّ لها احتياجـاً وأكـثر لها اضـطراراً، وإنَّا لنسـمع -والحمـد لله- في هـذه الأيام عمَّن يجهَد في إيصال معونة للمتضررين، أو بذل مساعدة للمحتاجين، أو مد يد المعروف للفاقدين.

فهـذه امـرأة تؤجِّر بيتاً لها بخمس عشـرة ألفـاً في الأيام السَّـالفات لكن لَمَّـا جاءتها عائلة من حمص تريد الاستئجار شطرت المبلغ شطرين وطلبت من العائلة أن تدفع ثمانية آلاف فقط، مشاركةً لهم في مصابهم ومساعدةً بما تستطيع.

وهـذا صـاحب معمـل يعمـل عنـده قـريب من مائة عامـل ومنـذ أشـهر عشـرة يتحمـل دفـع أجورهم على حساب أرباحه الخاصة، وربَّما شق عليه الأمر لكنَّه يعينهم راجياً معونة الله.

وتلـك امـرأة مرضـع تبحث عن طفـل رضـيع فقـدَ أمـه لتضـمَّه إلى صـدرها مـع ولـدها يتشاطران الحليب.

وتاجر يبيع الورق بسعره القديم على الرُّغم من ارتفـاع سعر صرف الدُّولار لأنَّه اشترى كميةً بالسِّعر القـديم وادخرهـا في مستودعه، فهـو لا يريـد أن يغلي على النَّـاس رحمةً ورأفةً بهم.

وهكذا عشرات القصص بل مئاتها، تسمعونها اليوم في التَّعاضد والتَّساند والتَّراحم، وإن كنَّا نسمع أضدادها في الاستغلال والأثرة والجشع.

ونحن جميعاً مدعوون إلى التَّراحم والتَّساند والتَّعاضد والتَّناصر والتَّراحم، نستمطر بذلك فرَج الله تعالى وعونه، وسيجعل الله بعد عسرٍ يسراً.

أخرج ابن مردويه عن عليٍّ -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم:

((يقول الله عزَّ وجلَّ: وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قريةٍ ولا أهل بيتٍ ولا رجلٍ ببادية كانوا على ما كرهتُ من معصيتي ثمَّ تحولوا عنها إلى ما أحببتُ من طاعتي إلا تحولتُ لهم عمَّا يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي.

وما من أهل قريةٍ ولا أهل بيتٍ ولا رجلٍ ببادية كانوا على ما أحببتُ من طاعتي ثمَّ تحولوا عنها إلى ما كرهتُ من معصيتي إلا تحولتُ لهم عمَّا يحبون من رحمتي إلى ما يكرهون من غضبي)).

والحمد لله ربَ العالمين